العرب بين الإرهاص والمعجزة

مخلص هذا البحث القاه باللغة الانجليزية الدكتور عبد الرحمن الانصاري في ندوة دراسات الشرق الاوسط بلندن ، ولاهمية هذا الموضوع سيقوم الاستاذ محمد حسين زيدان باعداده باللغة العربية وتقديمه لمؤتمر المؤرخين العرب بقطر .

بقلم : الاستاذ محمد حسين زيدان

سادتي ·· سيداتي

في هذا النداء أقدم السيد على السيدة ·· أتعمد ذلك لاحفظ قوامي بالمحافظة على التقاليد التي عرف العربي بالمحافظة على تقاليده كما عرف الشعب البريطاني ·

ليس هذا التقديم للمفاضلة ·· فالام عندي أفضل من الاب ، ولكنه التقدم بهذه المحافظة على التقاليد لا أكثر ولا أقل ·
سيداتي ·· سادتي

لااريد أن أقدم بحثا عن دراسة شاملة ·· فما زلت أعرف في أمثال عروبتي : ألا أحمل التمر الى هجر ، فانتم رجال العلم والفكر ممن كنا نسميكم المستشرقين ، فرفضت هذه التسمية أسير بها كما سار بها البروفيسور جاك بيرك ، والبروفيسور شارل بيلا ، الفرنسيان المستعربان ـ فاقول أنتم المستعربون لا المستشرقون ·

فالاستشراق يحرمني أنا العربي الاستحواز عليكم والالتصاق بكم ، وحصر ماصنعتم لأمتي العربية تقديرا لكم ·· لا حرمانا للآخرين من علمكم ، وبكل الصراحة ، وبالصدق المكلف به طالب المعرفة ·· أقر وأعترف أنا الموقع أدناه ، أوبعبارة أخرى ، الناطق بهأمامكم ، باننانحن العرب مدينون لكم بنشرتاريخنا ، والاحتفال بتراثنا ،والاشادة بحضارتنا ليس من باب الاطراء لتاريخنا وآثارنا وحضارتنا ، وانما هو أدخل في باب اعلان الاعتراف منكم بعظمة هذا التاريخ وعظمة هذه الحضارة ، والاغتراف منها ·· فقد كانت أمة العرب أمة الاسلام الامة الوسط ، حاملة الحضارة الوسيط التي أفادتكم ، فكانت الاساس والدعامة لما أنتم عليه الآن ·

سيداتي ٠٠ سادتي

من هذا المنطلق ٠٠ لا أتقدم بدراسة وبحث ، وانما أتقدم بخواطر ٠٠

فقد كانت حالة العرب وشبه الجزيرة العربية قبل الاسلام موضوعا لبحوث كثيرة ومتعددة في الشرق والغرب على السواء ، كتبت بلغات مختلفة ، وعكف عليها عدد كبير من الدارسين ٠ ذلك لأن ظهور الاسلام كان حدثا تاريخيا لايشابهه حدث آخر في تاريخ البشرية كلها ٠٠ فلقد استطاع أتباع هذا الدين أن يغيروا وجه الارض المعروفة في ذلك الوقت ، تغييرا كليا في فترة من الزمان لاتتجاوز الثلاثين عاما ، ولا تزال البشرية كلها تعيش في آثار تلك التغيرات الى يومنا هذا ٠

ومن هنا فقد أراد العلماء شرقا وغربا أن يستطلعوا أحوال ذلك الجنس العربي الذي تمكن من ابراز هذه المعجزة ٠٠ وأرادوا أن يعرفوا الخصائص التي ساعدتهم ومكنتهم من ذلك كله ٠٠ فكان لابد من أن يرجعوا الى الوراء قبل ظهور البعثة المحمدية ، فدرسوا أحوال شبه الجزيرة من الناحية الجغرافية وموقعها ، وأثر ذلك الموقع في قبول الاسلام ٠٠ كما درسوا أحوال القبائل العربية التي كانت تقطن شبه الجزيرة آنذاك من الناحية الاجتماعية ، وتركيب هذه القبائل وعلاقة الفرد بها ، وعلاقتها بالفرد ٠٠ والحروب الدموية التي كانت تقوم بينها وأسبابها ٠

كما درسوا الحالة الاقتصادية وأنواع المتاجر الداخلة الى شبه الجزيرة والخارجة منها ، والنقود التي استعملوها سواء أكانت دراهم فارسية أو دنانير بيزنطية ٠

ودرسوا حالة الطرق وأنواع القوافل ، ولكن أهم الدراسات انصبت على الحياة العقلية ومظاهرها في اللغة والشعر والانساب والقصص ٠

وكذلك الديانات التي كانت سائدة بين سكان شبه الجزيرة ، فدرسوا الوثنية وأصولها وأنواع الآلهة التي كانت تعبد هناك ، ودرسوا انتشار اليهودية والنصرانية والاثر الذي أحدثته هاتين الديانتين في العقلية العربية ، وخلصوا من ذلك كله الى أن تلك الارض كانت موطن حضارات متعددة ومتقدمة ٠

فلقد كانت مدن الحجاز ٠٠ الطائف ومكة والمدينة ٠٠ تعيش عيشة الحرية والاستقلال ، فلا تقر بالطاعة لأحد ٠

أما في الشمال في بادية الشام ، فقد خضع العرب لتيارات السياسة العالمية دون اخوانهم عرب الجزيرة بزمن طويل ، فمنذ زمن الأشوريين كان للعرب هناك مملكة عاصمتها الجوف ، تعاقبت على عرشها الملكات ، وظلت خاضعة لنفوذ الأشوريين حتى عام ٦٦٩ ق·م بل لقد جعل الملك البابلي نابونيدس (بختنصر) ٥٦٦ ـ ٥٣٩ ق·م مقره فترة من الزمان في واحة تيماء التي كانت قاعدة لحملاته على الغرب ·· ولقد وجد في هذه الواحة نقش آرامي يرجع الى العهد الفارسي يدل على النظام الديني في تلك المدينة ، وما ينطوي عليه من كهنة ، وهياكل ، وآلهة خاصة بكل منها · ثم نشأت دولة الانباط بعد ذلك بزمن متأخر وسيطرت على تجارة القوافل ، وكانت عاصمتهم سلع أو البتراء ، وهي قلعة جبلية تقع على منتصف الطريق تقريبا بين البحر الميت ورأس الخليج العربي وهي الآن مقصد السياح الوافدين على الاردن ·

ولا تزال آثار سلع الهامة والكتابات المختلفة التي نقشت على قبورها المنحوتة في الصخر شاهدة على ماكان لها من حضارة زاهية · ولقد اصطنع الانباط الذين ورثوا الثموديين في هذه النقوش ·· اللغة الآرامية التي كانت لغتهم الرسمية واقتبسوا ألقاب موظفيهم وزعمائهم العسكريين من الدول الهيلينية المجاورة ·

ثم قضى الرومان على استقلال (سلع سنة ١٠٦ م) وضموها الى امبراطوريتهم وعرفت عندهم باسم « المقاطعة العربية » وكانت تدمر التي خلفت دولة الأنباط أسعد حظا من سابقتها ، وكانت السيادة فيها للعرب ·

ولقد خاضت تدمر حروبا ناجحة ضد الفرس ، مكنت ملكها « أذينة » من بسط سلطانه على سوريا كلها ·· ولما توفي « أذينة » سنة ٢٦٨ م تولت امرأته « زنوبيا » ـ الذباء ـ زينب أمر الحكم من بعده ، وظلت تصرف شؤون المملكة حتى سنة ٢٧٣ م عندما دمر الامبراطور أورليانوس مدينة تدمر ، وكانت نهاية الملكة « زنوبيا » الفاجعة موضوعا بعيد الاثر في نفوس عرب الصحراء ، وظلت سيرتها تروى في عصور الاسلام الاولى بعد أن اكتسبت طابعا أسطوريا ·

وبالقضاء على تدمر انتهى عهد الدول العربية المستقلة في الشمال ، ومنذ ذلك الحين صار الرومان وخلفاؤهم البيزنطيون قادرين دائما على أن يتخذوا بعض العرب صنائع لهم على تخوم البادية ، يستعينون بهم على صد غارات العدو على المناطق المتحضرة ، والواقع أنهم اصطنعوا الغساسنة في الشام ، وكان اليهم حكم المناطق

الواقعة شرق الاردن ٠٠ وأشهر ملوك هذه الاسرة الحارث الخامس ، وكانت له سلطة مطلقة على العرب في شمال سوريا ، الا أنه بعد وفاته لم يتمكن ملك من ملوك الغساسنة أن يخضع هؤلاء جميعا تحت حكمه الا قبيل الفتح الاسلامي ٠

واتبع الفرس أعداء الرومان التقليديون نفس السياسة نحو العرب ، والمفروض أن سابور الاول ذا الاكتاف نفسه هو الذي عين عمرا بن عدي من بني لخم ملكا على العرب في العراق ، وقد وجد النقش المحفور على قبر ابنه امرىء القيس في النمارة جنوب شرقي دمشق وعرف عند علماء الدراسات التاريخية باسم نقش النمارة ، ولا يزال أحد المصادر الرئيسية في دراسة أصل الخط العربي ٠

اما خلفاؤه فقد جعلوا مقرهم بوصفهم عمالا للفرس في الحيرة الواقعة على نحو عشرة أميال جنوب بابل ٠٠ ولقد كان هؤلاء في حرب دائمة مع الغساسنة الذين استولى ملكهم المنذر على الحيرة حوالي سنة ٥٧٥ م ودمرها ٠ وهذا ماأشارت اليه الآية الكريمة (**الم غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين**) اشارة الى الحرب بين الامبراطوريتين « غلبت الروم ثم غلبت » فجزع المسلمون لانتصار الوثنيين الفرس على الكتابيين الرومان حتى اذا انتصروا مهدوا باضعاف الفرس للانتصار في القادسية ٠

وعلى ذلك فاننا نرى أن أجناسا كثيرة وجدت في شبه الجزيرة قبل ظهور الاسلام ٠

ولقد اعتاد النسابون أن يقولوا ان عرب الشمال من نسل اسماعيل بن ابراهيم وعرب الجنوب من نسل قحطان ، وتبعا لهذه الرواية نعرف فروقا بين القبيلتين :

أولا : ان القسم الجنوبي كان يعيش عيشة استقرار وتغلب عليه الحضارة ، ولقد ذكر القرآن هذه الحقيقة في قوله تعالى : « **لقد كان لسبا في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور** » أما أهل الشمال فكانت تغلب عليهم البداوة والبعد عن الاستقرار ٠

ثانيا : انهم مختلفون في اللغة ، فكانت لغة اليمن تخالف لغة الحجاز ٠٠ فاللغة اليمنية أكثر اتصالا باللغة الحبشية والاكادية ٠٠ ولغة الحجاز أكثر اتصالا باللغة العبرية ، النبطية ٠

ثالثا : أنهم مختلفون في درجة الثقافة العقلية تبعا لما هم عليه من عيشة بدوية أو حضرية ·· وتبعا لاختلافهم في اللغة والامم التي كانوا يخالطونها ، ولقد تجاوز المؤرخون عندما ذكروا أن هذا اختلاف في اللغة وليس الامر كذلك وانما هو اختلاف في اللهجات أما اللغة فأساس واحد ·

ورغم ذلك فانه مما يستوقف نظرنا أن نرى اللخميين في الحيرة والغساسنة في الشام قد عمروا قرونا وبلغوا في المدنية شأوا بعيدا ـ اذا قيس بحالة العرب في الجزيرة ـ وكان منهم من يخالط الفرس والروم ويتكلم بلغتهم ، ودينهم على العموم كان أرقى من دين غيرهم من العرب ·· فهم اما نصارى أو مجوس وهذا كله كان داعيا الى خصب الذهن وتفتق القريحة بالشعر ، وكان من المعقول أن تخرج بلادهم فحولا من الشعراء ·· ولكننا لم نظفر منهم بشعر ذي خطر ، فهم مثلا يحدثوننا عن عدي ابن زيد العبادي الحيري وهو شاعر ضعيف كان الاصمعي وأبو عبيدة يقولان فيه : عدي بن زيد في الشعراء بمنزلة سهيل في النجوم يعارضها ولا يجدي معها ، وكل الذي يرويه لنا الادباء هو رحلة شعراء الجزيرة ·· كالنابغة والاعشى وحسان الى أمراء الحيرة وأمراء غسان ·

ولقد كانت الحياة الدينية عند العرب القدماء تقوم على تقديسهم لضروب من الحجارة في سلع وغيرها ، ولقد حظيت بعض الاماكن المقدسة بشهرة خاصة ، فكانت القبائل المختلفة تحج الى عكاظ ، والواقع أن الاسواق التي كان العرب يقيمونها في الجاهلية ارتبطت بالاحتفالات الدينية ومن هنا كانت مجالا لتبادل النتاج الرومي بالاضافة الى البضائع والعروض المادية ·

ولكن هناك ثلاثة آلهة اشتهرت عندهم أكثر من غيرها ، الاولى وهي « مناة » وكانت معروفة في مكة ، ولكن عبادتها شاعت على الخصوص بين قبائل هذيل ، والثانية « اللات » ، والثالثة « العزى » ·

ولكن بالاضافة الى هذه الآلهة اعتقد العرب ككثير من غيرهم من الشعوب القديمة باله خالق للكون هو « الله » سبحانه وتعالى ، فهم يعرفون الرب ويشركون بالاله ·

كما أن الديانات السماوية التي كان لها منذ زمن طويل أنصار وأتباع في بلاد العرب قد ساعدت على هدم الوثنية العربية السابقة ·· ففي جنوب الجزيرة بلغت اليهودية في فترة من الزمن مبلغا من القوة ظهرت آثارها في اعتناق الحكام لها ·

أما النصرانية فقد تمتعت في ظل الامبراطورية الرومانية بقوة اجتذاب عظيمة لمجرد كونها دين الدولة الرسمي ·· ومما لاشك فيه أن بلاد العرب الداخلية وبخاصة مدن الحجاز التجارية لم تكن تجهل كل الجهل تعاليم المسيحية وتقاليدها بسبب اتصالها الدائم بقبائل الشمال ·· وليس من شك في أن الرهبان الذين انتشرت صوامعهم من فلسطين وشبه جزيرة سيناء حتى قلب الصحراء كان لهم أثر كبير في تعريف العرب بالنصرانية ·

تلك هي خلاصة لبعض الاحوال السائدة في شبه الجزيرة قبل البعثة المحمدية ·

وقد يكون في خواطري الجديد علي ، أو هو الجديد مني ، ألفت اليه أنظاركم لعل بعضكم يعترف بصحته ولعل البعض الآخر يطرح حوارا يناقض هذا الصواب ، فالحوار فيه النقيض ، لكن النقيض حياة للنقيض ، خطأ يصلحه صواب ، وصواب تتعرض اليه التخطئة لينصب حيله وينتصب قوامه ، صوابا لاتأخذ منه التخطئة ، فالتاريخ الحديث ·· الاثر كلمة صامتة نحاول أن ننطقها بقراءة جديدة ، وفقه جديد أنتم أيها المستعربون كنتم السباقين الى فكر التاريخ وفلسفة التاريخ ·

سباقون بالجهر ، وبالصراحة ، وفي هذا لا أكيل الثناء عليكم ، وانما أريد أن يكون كبرياء تاريخ العرب لايتنكر للذين يفقهونه ويفلسفونه ·

ولست بهذا الثناء عليكم انسى عالمنا وامامنا في فلسفة التاريخ العربي الحضرمي التونسي المصري ابن خلدون ·· كما لاأنسى أستاذ القومية العربية من سمى نفسه اعجابا بأبي خلدون ·· ساطع الحصري ، أجاد الحوار مع المؤرخ الكبير ·· لايحرمه الحوار حين يبرز الخطأ من الحب والتقدير للامام ابن خلدون ·· فالحوار فكر مع فكر ·· بهذا يعلو ولن يكون ذاتا مع ذات ·· أنانية ضد أنانية ، فان كان ذلك فليسقط التاريخ ·

هذه المقدمة اتبعها بمقدمة ثانية عن لمحة موجزة عن الامة العربية في عصور التاريخ السحيقة ·

فاذا كان طوفان نوح هو التطور الثالث طبيعيا ، أبرز أراضيه ، وأغرق أراضيه ، وخسف بحضارات ، فان العرب هم ورثة نوح ·· أصحاب التطور الحضاري

من ولده سام ـ فهم الساميون الاكثر اعتزازا بالسامية ـ لايحاربونها وانما هم يحاربون من أقحموا أنفسهم على السامية من الذين تهودوا من هؤلاء الاثكفاز الذين لم يلدهم اسرائيل ٠٠ قد نسميه تجاوزا : التطور الثاني ، لا الثالث لنعطيكم أنتم كمستعربين قيمة التطور الحضاري الثالث ٠ أرجو ألا يرتفع اصبع يذكرني بحضارة الرومان واليونان ، فلا أريد أن أنسى ذلك أو أتناساه ، ولست متعسفا حين أضع حضارة اليونان والرومان جزءا كقبس من التطور الثاني لحضارة الانسان صناعة العرب ، جاءت حضارة اليونان والرومان قبسا منها ٠

فالفراعين والكلدان والآشوريون والانباط وعاد وثمود وفينيق وكنعان ـ هؤلاء عرب هم أصحاب التطور الثاني واليونان جاءوا معاصرين لبعض هؤلاء أو متأخرين عن بعض هؤلاء ٠٠

فحين أذكر هذه الشعوب العربية حول النهر ٠٠ نهر النيل ، نهر الفرات ، نهر بردى ، نهر الاردن ٠٠ في اليمن الخضراء ٠٠ في شظف الصحراء ٠٠ أعتبر أن كل هؤلاء من العرب ٠٠ وكانوا بكل ماتمكنوا به وبالرسالات والانبياء ٠٠ كانوا أول ارهاص لهذا الاسلام ، فالعرب بكل مالهم وما عليهم كانوا الارهاص ٠٠ أعدهم الله لان يكونوا وفي أحقاب السنين على دعائم من الحضارة ، وتعدد الديانات ،ونبوغ الرسالات ، مقدمة لهذا الدين ، حمله العرب أول من حمله ، ثم حملته الشعوب الاخرى التي أسلمت فكانت عربية الوجدان بلغة القرآن وتعاليم القرآن ٠٠ مسلمة الايمان ، بتعاليم القرآن ٠٠ وشريعة الاسلام ٠

هذا الارهاص الكلي ، وباعتباره التكوين لوجدان العربي وفكره وحضارته ٠٠ قد جاءت بعده ارهاصات كثيرة منها ظاهرة السلب ، والانتفاء من الانتماء ، وكثير من الايجاب ٠٠ الاحتفاء بالانتماء ، فكيف كان ذلك ؟

سيداتي ٠٠ سادتي :

فأدهر العرب في جزيرتهم فلم يصحروا ، اندفعوا موجات موجات ، لاينتقلون بشرا الى الامراع حول النهر ٠٠ وانما نقلوا كل فكرهم ووجدانهم الى بيئات خضراء اخضرت بها حضارات ورثت حضارات وأنبتت حضارات ٠

فالهجرة من الامراع الى الصحراء غير واردة ٠ قال ذلك العلماء ، وانما الصحيح أن هجرة العرب كانت من الارض التي أدهرت الى الارض التي أمرعت ، لكن وقد التصقوا بالارض لم يدعوا الجزيرة فراغا ، بقيت بقايا منهم في بيوت الشعر . كانت الملجأ لهم حين تعضهم شعوب غازية ، يهاجرون من بيت الشعر ، ويتهاجرون اليه ٠

ان بيت الشعر هو عظمة الارهاص لمعجزة الاسلام ٠٠ تصوروا كم هي المهلكات التي سقطت على بيت الشعر ٠٠ جدب ، وأمراض ودماء ٠٠ الخ هذه الواوات ، وبقي بيت الشعر المدد الولود يحفظ على الشام عروبته ، وعلى العراق عروبته ، وعلى اليمن حضارته ، ويمد أفريقيا بمدد عربها ٠

فقد قال الامام ابن باديس ، شيخ الجزائر ، الرجل الاول في تعليم الجزائر الثورة على الاستعمار ٠٠ قال : لئن قيل انهم خربوا ، فلنقل انهم عربوا ٠٠ يعني موجة بني هلال وبني سليم ٠ فموجة الفتح التي استمرت في امبراطورية الخلفاء ، وامبراطورية أمية ، وامبراطورية العباس ، تبعتها موجات من الجزيرة لم تذهب للنجعة وانما كانت حملة قومية بوازع سياسي لم يسأل عنه تاريخ المعز الى الآن ، أزعم أنها على يقين أن موجة بني هلال وبني سليم كانت عن تخطيط بين هاتين القبيلتين وبين المعز الفاطمي ٠٠ لها آثارها وبها تأثيرها ٠

سيداتي ٠٠ سادتي :

أكثر الذين كتبوا عن العرب ، ومن المسلمين بالذات وقعوا في خطأ ابن خلدون يزعمون أن العرب كانوا قبل الاسلام لاشىء ، وأن الاعراب بعد الاسلام هم لاشىء ٠

والحق أن هذا خطأ ، نظروا الى أحد الوجهين من العملة ولم ينظروا الى الوجه الثاني ٠٠ استمروا في تعديد السلبيات ، وما خطر على بالهم أن خلفية هذهالسلبيات كانت ايجابيات ٠

قالوا :

ان العرب كانوا قبائل تسيل بينها الدماء في حروب قبلية ٠٠ خطأ ٠٠ أن يكون في أرض واحدة شعب واحد يتوزع قبائل يقتل بعضها بعضا ٠٠ هذا وجه الدينار ٠

أما الوجه الآخر فشيء آخر ··

ان حروب القبائل ، أزعم وأنا على يقين ، أنها كانت ارهاصا لمعجزة الاسلام ·· لرسالة سيدنا محمد سيد الانام عليه الصلاة والسلام ·· فالدين الجديد ·· الرسالة المحمدية ، رسالة الاسلام ·· لابد لها من رجال يعتقدونها ·· يحمونها ·· ينشرونها يتحضرون بها ليرسلوا الحضارة الوسيط الى بني الانسان ·

هذه الحروب القبلية ·· كانت أكاديميات عسكرية ، تعلمت القبائل المتحاربة من هذه الحروب البغيضة ، التعامل مع السيف والرمح والاحتفاء باقتنائه ، والتجارة به ، فقد كانت عند بعضهم ذخيرة من هذا السلاح اما أن يتمولوا بها ·· أو أن يمولوا قبيلتهم بها ·

أدرع العباس بن عبد المطلب مثلا السلاح كل السلاح عند صفوان بن أمية الى غير هؤلاء ·

ان قوسا واحدة ·· قوس حاجب بن زراره ·· صنعت حرب ذي قار ·· حتى اذا جاء الاسلام ، وجد الفوارس ·· قادة الجيوش ، فهل كان في الامكان لو لم تكن هذه الحروب المعلمة ، أن يكون في الاسلام وللاسلام قائد مثل خالد بن الوليد ·· أركان حرب مثل القعقاع بن عمرو ، وفاتح الشرق مثل قتيبة بن مسلم ، فاتح الغرب مثل عقبة بن نافع ، فاتح الاندلس مثل موسى بن نصير وطارق بن زياد ·

تعلموا في الجاهلية حتى جاءوا الى الفتح كانوا الاساتذة يعلمون الاجيال بعدهم ·

والانحياز الى الصحراء يظهر للمشفبين على العرب أنه بداوة ، بينما هو ورغم الحروب القبلية ، كان تكتلا حضاريا ·· لم يمكن للفرس أن يتجاوزوا الحيرة ، ولم يمكن للرومان أن ينفذوا الى بادية الشام ، ولم يمكن للفرس ولا للاحباش أن يستقروا في اليمن ·

كان تكتلهم في الجزيرة ارهاصا لهذه المعجزة الاسلامية ، وحين سطع نور هذا الدين ، وجد في هذه المنطقة الجبلية ميدان نجاح ·· صدع النبي محمد بالرسالة على الصفا ، فنفقه مما جرى ارهاصين : فحين بشرهم وأنذرهم كان من ردود الفعل أن

تجتمع قريش على كلمة واحدة ، تصده وترده ، ولكن هذا الاجتماع انفرد في اللحظة الاولى بموقف أبي لهب المنكر للرسالة ، فلو لم يقف أبو لهب عم النبي هذا الموقف المنكر لأجمعت قريش أمرها على الانكار بكلمتها الموحدة تصد وترد ٠٠ لكن كلمة أبي لهب « تبا لك ٠٠ ألهذا جمعتنا ٠٠ » أطفأت غلواء قريش كأنهم قالوا اتركوه الى عمه ، وجه العملة الرديء ٠٠ انكار أبي لهب ، وجه العملة الارهاص ، فموقف أبي لهب فرق كلمة قريش ، تركت الرسول العظيم لعشيرته الاقرب فلم تشارك عشائر قريش أول الامر في كلمة واحدة ٠٠ أعطت المتنفس ليسلم السابقون الاولون ٠٠ ينازعهم عمه أبو لهب ، يطفيء النار بما سلب ، يناصره عمه أبو طالب ، يقاوم ثائرهم بما أوجب ٠

وهذا الموقف في مكة ، وهو سلبي كل السلب ، تحارب قريش لرسول الله بالاذى والانكار ، والتعذيب للمستضعفين ٠٠ كان عملا رديئا ، لكن الوجه الآخر للدينار كان عملا مفيدا ٠

لماذا ؟؟

لأنه وكما ذكرنا من أن قريشا تركت الامر بين أبي لهب ينازع الرسالة المحمدية فان العرب كل العرب تركت قريشا تنازع الرسالة المحمدية ٠٠ فكأنهم أرادوا ٠٠ ما دامت مكة قد حاربت هذه الرسالة فلا داعي لأي تكتل منا يحارب الرسالة في مكة ٠

فقد يخلق هذا الصراع بيننا وبين قريش حين نبادر الى أي تحرك ضد مكة ٠

كان تأخر العرب لأن تحارب هذه الرسالة ارهاصا للنبوة ٠

ألستم معي في هذا الفكر ٠ ؟! أرحب بمن يستريح لهذا الفكر ولا أجفل ممن يناقض هذا الفكر ٠

سيداتي ٠٠ سادتي :

وارهاص آخر يتبع ارهاص المتحاربين والمستنكرين على الصورة التي شرحت بارهاص آخر كان أساسه المعتقد والعقيدة ٠

سطع نور الاسلام ، وقبائل العرب في جزيرتهم ، في نجدهم وحجازهم وتهائمهم وسرواتهم ، وثنيون ٠٠ لهم آلهة من حجر أو شجر ٠٠ أو حتى اله من عجوة التمر ، كما هو اله عمر في الجاهلية ٠

هذه الوثنية في العرب أزعم أنها من الارهاص للاسلام ٠

كيف كان ذلك ؟؟

فلو كانت قبائل العرب نصرانية ٠٠ لناصرها الرومان ، وجاءها المدد من الشام ، ولو كانت يهودية لتعثر اقتناعهم بالاسلام ٠٠ كما هو الحال فيما وقع في الواحات العربية ٠٠ المدينة ، خيبر ، وما الى ذلك من وادي القرى ٠

لو كانوا نصارى أو يهودا أو لو كانوا وثنيين مجوسا من أتباع زرادشت أو ماني ٠٠ لوجدوا النصير ولوجد الاسلام العسير ، ولكنهم كانوا وثنيين ٠٠ لديهم ملامح ووراثات من ملة ابراهيم ، فانفتح وجدانهم الى قبول العقيدة الاسلامية بيسر فيه بعض العسر ٠٠ ليس سببها عمق العقيدة لديهم ، وانما سببها زعامات خافت على نفوذها اذا ماانطوت تحت راية الاسلام كالذين ادعوا النبوة أو الذين منعوا الزكاة ٠

ان (هبل) الوثن كبير الآلهة في مكة الذي سقط من جوف الكعبة كان وثنا ، رديئا أن يعبد ، ولكنه من الوجه الآخر ، كان حرزا للعربي أن يتنصر أو يتهود ، كان ارهاصا لمعجزة الاسلام تدخل فيها قبائل العرب الوثنية ٠

ان اليهودية في الواحات ، كانت العسر كل العسر ، فما تنفس الإسلام حتى أجلاهم ، وان نصارى تغلب قد مكثوا طويلا فلم يسلموا الا بعد لأي ٠٠ فطليحة الاسدي الوثني ادعى النبوة ، وما أسرع ماانهزم حتى أسلم ، وغقة التغلبي النصراني انهزم مع طليحة ٠٠ فما أسلم حتى أهلكه خالد بن الوليد وما زالت تغلب تبقي على نصرانيتها الى زمن طويل ٠

سيداتي ·· سادتي :

ان القومية العربية حين أصبحت شعوبية عربية في عهد بني أمية ، كان لها وجهان ·· الوجه الحبيب الى العرب ، والوجه البغيض الى الشعوب المسلمة قدْ غربها العرب فحملت لهم مذلة اختفت ثم ظهرت ·

لم تكن احسانا على العرب الا حينا من الدهر تسعين عاما ، ولكنها كانت احسانا لانتشار الاسلام ، وتشبث الشعوب بحبائله ، تدافع عن نفسها به ، فبالاسلام انتصبت شعوبية هذه الشعوب الى هدم القومية لنصرة ذاتها بانتصار الاسلامية ، فاظهرت العباسيين فانقلب الامر على حرمان العرب من كل سلطان ·· حلفاء عرب بفكر اسلامي ينتصر بغير العرب ، فمن سيئات الشعوبية اذلال العرب ، ومن بعض محاسنها انتصار الامبراطورية العباسية لتنتشر حضارة الاسلام برجال من أعراق غير عربية لكن اللسان الامبراطوري العظيم ·· لسان العرب هو الذي لم ينهزم ·· فكل هؤلاء الرجال العباقرة من غير العرب كانوا عربا ·· عربا تكلموا العربية ، فكروا بأسلوبها ، كتبوا بها ·· فالحضارة الاسلامية صناعة مسلمة بوجدان عربي ، بلغة عربية ·· ليس هذا ارهاصا انما هو معجزة ، ليست معجزة العرب وانما معجزة الاسلام ·

ان الاسلام ليس دين عبادة فحسب وانما هو حرية الوجدان والفكر في انطلاقة لاعتناق ماهو حسن ، واجتناب ماهو سيء ، فلم يتنكر المسلمون الى علم الصين والهند واليونان والرومان ·· أخذوا كل ذلك فاعطوا على ذلك ·· ليس هذا ارهاصا وانما هو معجزة ·

سيداتي ·· سادتي :

تقدم اليكم الاثر الاجتماعي وكيف كان المظهر السيء له عائد حسن ، فالقتال والوثن والخلاف ·· كل هذا مهدت كارهاص لمعجزة الاسلام ·· غير أن هناك الدعامة والاساس ، أساس سرمدي هو وحدة الارض ، فالارض عربية كأنما طوفان نوح وأبناء سام الذين هم الخلاصة التي جاءت بالشعوب العربية ، فالشعوب العربية هي الاولى بوراثة السامية لاغيرها ·

ان وحدة العرق في الغالب في وحدة الارض كان ارهاصا للاسلام ، فاتصال الارضين التي عمرها العرب سهل قبولهم للاسلام حتى أن الاستعمار الروماني والفارسي كانا من هذه الاسباب التي انتصر بها الاسلام كما انتصر عليها ، فالشعب العربي في الشام ، في العراق ، في اليمن ، في مصر ، في أفريقيا ، وجد وهو في ثورة على المستعمر الغوث في الفتح الاسلامي .

فالوجه الرديء للاستعمار له وجه آخر هو أن حرب الشعوب عليه قبلت الغوث فحين فتحت الارض الموحدة انفتح قلب ساكنها العربي لهذا الاسلام .

وحدة الارض عامل كبير ، فرغم صعوبة وسائل المواصلات كانت وحدة الارض هي القريبة التي سهلت صعوبة المواصلات الى قرب الاتصال .

سيداتي .. سادتي :

وهناك عامل أساسي أيضا بعد وحدة الارض هو وحدة اللغة .. لهجات الشعوب العربية كانت قبل هذا التوجيه للغة كأنها لغات متغايرة ، وجاء الامر قبل الاسلام ارهاصا في الاسواق العربية أهمها سوق عكاظ تجتمع القبائل ، يتسع الحوار ، تتصافح القربي ، تتعارف الرجال ، تتوحد اللغة .. كانت وحدة اللغة تمهيدا لفهم لغة القرآن فلغة القرآن جاءت بيانية فصيحة في أمة بيانية فصيحة .

ان وحدة اللغة عامل أهم ، كان رديفا لتأثير القرآن ، يعرفونه ، يفهمون لغته متوحدين في هذا الفهم بلسان واحد عربي مبين ، فكان من السهل أن تدخل لغة القرآن مسامع الوجدان الموحد بلسان واحد .

سيداتي .. سادتي :

تقع الامة العربية الآن في خطأ الانعزالية .. كل شعب يؤرخ لشعبه ، مصر تنعزل بتاريخها مستقلة به عن العرب ، العراق .. لبنان .. تونس .. الخ ماهنالك

فراعين ، فينيقيون ، كلدانيون ، آشوريون ٠٠ ان هذا الانفصال أو الانعزال تجزئة لتاريخ أمة العرب ، بينما كل هؤلاء عرب ، ليس برهاني وحدة اللسان ، وانما برهاني وحدة الوجدان ، وانما دليلي وحدة الأثر ، فالآثار العربية في الجزيرة وعلى الخليج تناغينا بأنها المدد لآثار الاخرين ، أو الامتداد لها ٠٠ ذلك مايأتي بـه الزمان عندما نتعاون نحن وأنتم على كشف المخبأ ٠

زارني أستاذ تاريخ مصري في يده بحث عنوانه (الاستعمار الآشوري) فألهمت ساعة في الحوار معه ٠٠ اقول له ان كلمة الاستعمار حديثة ، وكلمة الاستيطان أحدث وأرى أن تسمية انسياح الآشوريين او الهكسوس أو الفنيقيين او الكنعانيين من أرض عربية الى أرض عربية ٠٠ أن تسمى بالاستعمار ، فالاستعمار تسلط الاجنبي ، والعربي حين ياتي بلدا عربيا ولو بصورة غزو فانما يعمر أرضه ، ويتآخى مع انسانه فيذوب فيه ٠

ان دعاة الفرعونية ، والفينيقية يزعمون أمرهم لو انتصروا أن يعدوا الفتح الاسلامي لمصر او لبنان اوتونس استعمارا ٠٠قياسا على وصف الآشوريين والهكسوس بالمستعمرين ٠

من هنا كانت الدقة في عظمة التسمية الاسلامية ، تسمية ضم الاراضين العربية في وحدة العقيدة ووحدة اللغة والوجدان فتحا ٠٠ (انا فتحنا لك فتحا مبينا) ٠

الفتح العظيم ٠٠ حتى الترجمة لكلمة غستان ليبون جاءت اعرابا عن هذه الدقة في التسمية ٠

أنا لااعرف كلمة غستاف ليبون بالفرنسية وانما أعرف الترجمة « ماعرف التاريخ فاتحا أرحم من العرب » أو الكلمة الاخرى ٠٠ لقد فتح العرب في ثمانين عاما أكثر مما فتح الرومان في ثمانمائة عام وأكثر من ذلك ٠٠ لهذا أدعو الشعوب العربية أن تفقه تاريخها ٠٠ تاريخ أمة واحدة ، لكل شعب امتيازه ، لكل شعب جهده لكل شعب مجده ٠٠ لكن التاريخ واحد والامة واحدة ٠٠ « ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » ٠

فالخلاصة أن العرب حملة رسالة ‥ بناة حضارة ‥ صناع سلام ‥ يحتفلون بالصداقة ‥ يحترمون حاضرهم ، ويعملون لمستقبلهم ‥ فما أكثر ماتبرأوا من الحقد ، وما أكثر ماتجرعوا من الحقد ·

العرب بالارهاص وبالمعجزة كانوا وما زالوا قوة تؤمن بالحق ، وتخضع لقانون الحق ، وتريد ان تكون أمة تعمل للسلام ، لا تغتال أرض أحد ، ولا تستغول في دماء البشر ، وانما تريد سلامة الناس من الناس ·

كأنها بهذه الفلسفة انسان الانسان ، لاتلوموني ان فخرت بأمتي فكلكم فخور بأمته ‥ وشكرا ·

محمد حسين زيدان

المراجع :

فجر الاسلام – لاحمد أمين

حضارة العرب – لجوستاف لوبون – ترجمة عادل زعيتر ·

أرض الانبياء – فلبي